الحروف العربية والحواس الست (1)

للأستاذ محمد عباس
دمشق

اللغة ، كاداة للتواصل بين البشر ، هي كالاصوات الهيجانية والحركات البدنية ، وما اليها من وسائل التواصل والاعلام فى دنيا الانسان والحيوان على حد سواء .

ولكن لماذا انصرف الانسان عن وسائل الاعلام البديلة هذه الى اللغة ، وبينهما فروق نوعية جبارة استحال معها على الحيوان أن يجتازها الى اللغة ؟

كان الفلاسفة وعلماء اللغة والنفس يعزون ذلك الى ملكة العقل فى الانسان . ولكن يبدو ان علماء البيولوجيا قد جاؤوا بتعليل جديد آخر .

فلقد اكتشف علماء اللغة البيولوجيون مؤخرا، لغة حياتية مسجلة على شريط كيميائى فى جزيء الحمض النووي من الخلية البذرية المولدة ، اطلقوا عليها اسم مدونة (ADN) . وبفك رموز هذه المدونة وجدوا انها مؤلفة من اربعة أحرف ، دعوها بالابجدية الوراثية ، ورمزوا اليها بأحرف (ت. س. غ. T) . ويشمل معجم هذه المدونة (64) كلمة ، قد تمايز بعضها عن البعض ، كل كلمة منها تشكل متوالية من ثلاثة أحرف على الشريط الكيميائى ، الآنف الذكر (2) .

واذن يمكن أن نستنتج من هذا الاكتشاف اللغوي البيولوجى الحديث ، ان الانسان لم يبدع اللغة استجابة عقلية للضغوط البيئية المشتركة بين الانسان والحيوان فحسب ، وانما استجابة لتركيبه البيولوجى

---

1) مدخل الى دراسة بعنوان « الحروف العربية والحواس الست » معدة للطبع .
2) كتاب الاتجاهات الرئيسية لبحث العلوم الاجتماعية والانسانية . اليونسكو ، المجلد الثانى ، ترجمة وزارة التعليم العالى السورية ص 306—313

ايضا، وقد جهز بشريط لغوي مسجل في خليته البذرية المولدة (فسبحان الذي علم الانسان ما لم يعلم) .

وهكذا فاللغة بحسب هذا الاكتشاف تنتمي الى الخصائص البيولوجية في الانسان ، قبل ان تنتمي الى الملكة العقلية فيه.وان لغة الانسان الفجر هي من نتاجه الفطري الالصق بالغريزة وليست قطعا مجرد مصطلحات عقلية تواضع الناس على معانيها .

كما يدعم هذا الاكتشاف صحة من ذهب الى القول بأن اصوات الحروف ، هي اصل اللغة ، وان اللغة ذات الافعال والمصادر الثلاثية الاحرف ، كاللغة العربية ، هي أقرب الى فطرة الانسان الموروثة من سواها .

اسوق هذه النبذة من مدونة (ADN) و

ابجديتها الوراثية ، لا كحقيقة علمية نهائية ، لتعليل نشأة اللغة ، ففي كل يوم حدث علمي جديد ، وانما للوصول الى ان الربط بين اصوات الحروف العربية والحواس الست ، ليس امرا مزاجيا ، اذ يمكن ان يرقى هذا الربط الى مرتبة العلمي ، اذا ايدته التجربة.

وهكذا تعرضت في هذه الدراسة بحكم الصلة الجديدة المفترضة بين الحروف العربية والحواس الست ، الى قضايا خاصة تتصل بعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والآثار والفيزيولوجيا والاصوات، لم يسبق ان تعرض لها باحث في اللغة العربية على ما أعلم .

فمجرد القول بوجود حاسة سادسة ، ومن ثم السعي للكشف عن العلاقة الكائنة بين اصوات الحروف العربية وبين الحواس الست ، مما لم يثره دارس في اللغة العربية حتى الآن ، لا بد له من نهج جديد في البحث والتقصي ، ولا بد لهذا النهج اذا كان صحيحا أن يطرح قضايا غير مطروقة ، ليصل الى نتائج غير مسموعة .

ومع ذلك لا يحسبن القارىء أن موضوع هذه الدراسة مبتكر لم يسبقني اليه أحد . فلقد تناوله كثير من علماء اللغة العربية وفلاسفتها وفقهائها وأدبائها طوال الف عام ونيف .

فالموضوع الاساسي لهذه الدراسة هو فطرية اللغة العربية .

وهذه الفطرية التي ظلت من مسلمات المدرسة اللغوية القديمة ، طوال الف عام ، قد رفضها اخيرا أصحاب مدرسة لغوية محدثة من خريجي الجامعات الغربية ، وقالوا برمزية اللغة واصطلاحيتها غربية كانت اللغة او عربية . لقد اخذوا بآراء علماء اللغة الغربيين الذين اجمعوا على ان اللغة « هي التعبير الرمزي بالذات وان كان لها الاولوية على كافة انماط الرمزية التواصلية » (3) .

ولقد شهد القرن الحالي صراعا مرًّا بين المدرستين ، كانت الغلبة العددية فيه لاصحاب المدرسة الحديثة ، بحكم القابهم العلمية الرفيعة ، ومراكزهم الجامعية المرموقة ، وسلطانهم الرسمي على عقول أجيال من ادبائنا ولغوييننا من خريجي الكليات الادبية التي يشرفون عليها ، لا فرق بين من قال منهم بعبقرية اللغة العربية ، وبين من انكرها.

---

3) المرجع السابق ص 281

وهكذا تضافر على دعوى فطرية اللغة العربية عوامل كثيرة ، من ابرزها :

أ ــ اجماع علماء اللغة الغربيين على رمزية اللغة ، ليصبح القول بفطرية اللغة العربية في نظرهم ونظر تلاميذهم ، ضربا من التخلف الفكري او التقوقع التعصبي ، دون أن ينتبهوا الى ما بين لغتنا واللغات الغربية من فوارق في الاصل والنشأة والبنية .

ب ــ اعتماد أصحاب المدرسة القديمة من القدامى والمحدثين على الحس الشاعري المرهف في المثقف العربي : اذن موسيقية مدربة على الشعر ، تدرك الفروق الدقيقة بين تلونات الاصوات ، ومعاناة ادبية طويلة ، يدرك معها الفروق الدقيقة بين تلونات معاني الالفاظ . وهكذا لم يتبع اصحاب هذه المدرسة في ذلك نهجا علميا تجريبيا ، ولم يستعينوا بمختلف العلوم الانسانية والطبيعية الحديثة . فكانت ادلتهم اللغوية تعتمد تارة على النصوص (كالعلايلي) وتارة على ملكة التذوق الفني (كابن جني) ، وتارة على صدى صوت اللفظة في النفس (كالارسوزي) .

ج ــ انصراف معظم ادبائنا ولغوبينا المحدثين عن الشعر العمودي قولا وحفظا ورواية ، مما اخذ معه الحس الشاعري المرهف ينضب في نفوسهم جيلا بعد جيل ، لتضمر بذلك الملكة الفنية التي كانت تأخذ بأسلافهم الى فطرية اللغة العربية عفو السليقة الشعرية والنشأة الادبية .

ولكن هل يستحيل علينا ان نجعل الانسان العربي المعاصر يدرك فطرية اللغة العربية ؟

اذا كانت فطرية اللغة العربية حقيقة انسانية ، فلا بد لها أن تطرح مجموعة من القضايا الانسانية والمادية ، التي يمكن اخضاعها للخبرات العلمية ، مما يحتم على العقل قبول نتائجها ، عربيا كان ، او غير عربي .

فما هي القضايا التي تطرحها فطرية اللغة العربية ؟

هذه الفطرية تعني مبدئيا ، ان اللغة العربية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة ، ماديها وانسانيها ، وان اثر الطبيعة لا يزال عالقا في جذور حروفها مبنى ومعنى الى يومنا هذا .

واذن،فانها تفترض ان الانسان العربي الذي أبدع هذه الحروف لم ينحدر عن شعب آخر ، وان حروفه لم يقتبسها عن لغة اخرى .

كما ان هذه الفطرية تقتضي أن يكون الحرف العربي كظاهرة ثقافية ، قد تفاعل مع مقومات الشخصية العربية وقيمها وتقاليدها ، وان يكون الانسان العربي بالمقابل قد تفاعل مع المعطيات الثقافية للحرف العربي ، ومع خصائصه الصوتية ايضا .

ولقد استهدفت من هذه الدراسة اقامة الادلة على صحة هذه المقولة ومقتضياتها .

ولكن ما هو موقف المدرستين اللغويتين الآنفتي الذكر من هذه النتائج المستخلصة مباشرة من مقولة فطرية اللغة العربية ؟

بيني وبين اصحاب المدرسة اللغوية الحديثة :

لما كانت هذه المدرسة ترفض اصلا فطرية اللغة العربية ، فمن البدهي ان ترفض أيضا نتائجها.

فلا الحرف العربي بكر ، ولا الانسان العربي فجر ، وليس ثمة اي تفاعل بين الحرف العربي والانسان العربي ، ولا العكس بالعكس صحيح ، الى آخر

ما هنالك من ضروب الرفض والانكار ، حتى ليظن القارىء وكأنه لا لقاء بيني وبين اصحاب هذه المدرسة في شيء .

وعلى الرغم من افتراقي واياهم في بداية الشوط ، واختلافي واياهم في نهايته ، فما اطول ما تعقبت خطاهم بين هاتين النقطتين ، وما اكثر ما لجأت الى العلوم التي استخدموها في ابحاثهم اللغوية، (وان غَنَّى كل منا على ليلاه) .

ولئن كنت استعنت بنبذ من علوم التاريخ والآثار والاجتماع والفيزيولوجيا والاصوات والفن والاخلاق، بمعرض اقامة الادلة والبراهين على صحة هذه المقولة، فان هذه الدراسة تنتمي اكثر ما يكون الانتماء الى علم اللغة النفسي .

فاللغة العربية بخصائصها ومزاياها الفطرية ، لا يمكن ان تنكشف للذهن العربي ، ما لم يستخدم العلوم اللغوية الحديثة في دراستها وتحليلها ، ولكن تحت رقابة حس شاعري مرهف ، وذوق ادبي رفيع.

فاللغة العربية كظاهرة فطرية من مظاهر الحياة الانسانية ، لا تخشى العلم الحديث قطعا ، وبقدر ما نستخدم من الوسائل العلمية الحديثة في استجلاء كنهها ، تتاح لنا الفرص للكشف عن المزيد من قيمها الجمالية ومضامينها الثقافية، لا بل وللكشف ايضا عن المزيد من خصائص الحياة الانسانية وقيمها، كرفيقتي عمر منذ فجرهما الحضاري الاول .

فني اللغة العربية من الاصالة العلمية ، ما في اي بادرة اصيلة من بوادر الحياة .

بيني وبين اصحاب المدرسة اللغوية القديمة :

اني واحد من تلاميذ هذه المدرسة ومريديها. قد ترعرعت في ربوعها ، انهل من ينابيعها ، واقطف من ثمارها ، واتقيأ ظلالها . فكانت جنتي اللغوية الفجر ، وما كان اسعدني بها ، حتى ظننت انه لن يكون يوما ما اي فراق بيني وبين اقطابها .

ولكن ، على الرغم من انطلاقي واياهم في البحث والتقصي من نقطة الابتداء ، هي بداية الحرف العربي ، ووصولنا سوية الى نقطة الانتهاء ، هي فطرية اللغة العربية ، فاني لم ألتق واياهم في هذه المسيرة اللغوية الطويلة بين هاتين النقطتين ، الا في صدف من تقاطع الطرق ، لنتفق حينا ونختلف احيانا كثيرة .

فلقد اعتمد اصحاب هذه المدرسة في ابحاثهم وتقصياتهم بصورة عامة على سليقة ادبية متمكنة ، وحس مرهف الشعور . ولربما تجاوزوا في تقصياتهم احيانا ، النطاق اللغوي التقليدي ، الى نطاق علوم النفس والحركة والاصوات ، والاجتماع وغيرها ، ولكن دون ان ترقى مثل تلك اللمع الذكية الى مرتبة البحوث العلمية الحديثة . فلا نهج علمي تجريبي واضح ، ولا استثمار جدي لمكتشفاتهم اللغوية في ميادين النفس والاجتماع والتاريخ والاصوات وما اليها .

ولقد عقدت فصلا خاصا في هذه الدراسة بعنوان (علماء اللغة العربية وايحاآت الحروف) استعرضت فيه آراء لفيف من كبار اصحاب المدرستين اللغويتين ، حول خاصية الايحاء في الحروف العربية ، المرتبطة مباشرة بفطرية اللغة العربية .

أما انا ، فقد نهجت في التدليل على فطرية اللغة العربية نهجا مغايرا .

فما هو منهجي في هذه الدراسة ؟

لقد اعتمدت طريقة الخطأ المفترض في البرهان الرياضي للتحقق من صحة مقولة فطرية اللغة العربية . أفترض ، وأتساءل عن صحة الافتراض، وأجيب . ثم أتساءل عن صحة الاجابة . وهكذا ، الى أن تتطابق الاجابة الاخيرة مع حقيقة الواقع . فتنسحب هذه الحقيقة الاخيرة ، بحكم المنطق الرياضي ، على جميع الافتراضات السابقة وأجوبتها .

الافتراض الاول :

اذا صح ان اللغة العربية فطرية النشأة ، فان ذلك يفترض بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي على حد سواء .

(بداءة الحرف العربي مرتبطة مباشرة بفجرية اللغة العربية ولا فراق . وفجرية الانسان العربي مستخلصة من هذه الصلة الراهنة بين معاني الحروف العربية وبين الطبيعة . اذ لو ان الانسان العربي اقتبس حروفه عن غيره ، لانقطعت هذه الصلة بينها وبين الطبيعة ، مثلما انقطعت في الحروف الغربية المقتبسة اصلا عن الابجدية الفينيقية) .

وللاجابة على هذه الفرضية ، عقدت فصلا خاصا في مستهل هذه الدراسة بعنوان : « حول بداءة الحرف العربي والانسان العربي » .

ولقد تبين لي من هذه الدراسة ، ان انسان الجزيرة العربية ظل مقيما فيها لم يبرحها قطعا ، ولم يغزه في عقر داره شعب آخر على الاطلاق ، منذ بداية العصر الجليدي الرابع حوالى الالف الستين قبل الميلاد حتى الالف العاشر او الثامن قبل الميلاد ، بعد ان أبدع جميع حروفه .

كما تبين لي ان الانسان في الجزيرة العربية قد مر بمراحل حياتية ثلاث :

1 ــ مرحلة الصيد : وقد استمرت منذ فجر الانسانية حتى الالف الثالث عشر قبل الميلاد. وكان الرجل القوي في هذه المرحلة هو سيد الاسرة بلا منازع .

2 ــ مرحلة الزراعة : وقد بدأت أول ما بدأت على وجه الارض في الجزيرة العربية على يد المرأة ، حوالي الالف الثاني عشر قبل الميلاد . فكانت المرأة في الجزيرة العربية أول فلاح في التاريخ لتكون بذلك أول معلم في دنيا الحضارات . وفي هذه المرحلة انتزعت المرأة الذكية زعامة الاسرة من الرجل القوي .

3 ــ مرحلة الرعي : وقد نشأت في الجزيرة العربية أول ما نشأت على وجه الارض ، حوالي الالف العاشر قبل الميلاد . وفي هذه المرحلة استعاد الرجل الشجاع المحارب سيادته على الاسرة ، ولا يزال محتفظا بها الى حد ما ، حتى اليوم .

كما تبين لي ان انسان الجزيرة العربية قد أبدع حروفه عبر هذه المراحل الحياتية الثلاث ، فكان منها الغابي والزراعي والرعوي . وقد أبدع الرجل استجابة للمقتضيات المهنية في مرحلتي الصيد والرعي بعض الحروف ، كما أبدعت المرأة استجابة لمقتضيات مهنتها في المرحلة الزراعية بعض الحروف ايضا .

وهكذا فان الموجات البشرية التي خرجت من الجزيرة العربية بين الالف العاشر والثامن قبل الميلاد الى وادي الفرات ووادي النيل ، تحت ضغط الجفاف المتزايد ألف عام بعد ألف ، كانت تحمل بذور حضارة راقية ، من حروف عربية ، ورموز كتابية ، وأدوات مدنية ، ومعتقدات سماوية وتنظيمات قبلية كانت

اساس أنظمة الحكم فى المنطقة العربية حتى العصر الحديث .

الافتراض الثانى :

اذا صح أن الحروف العربية بديئة ، فالمفترض ان يكون الانسان العربى قد استخدم أصواتها للتعبير عن مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الانسانية .

وفى الحقيقة ، عندما لمس الانسان العربى الفجر الاشياء من حوله ، لابد أنه قد عبر عن الاحساس بالخشونة او النعومة او الحرارة او الصلابة ، وما اليها من الملامس ، بأصوات معينة مرفقة بحركات جسدية ملائمة ، وذلك بمعرض التواصل والاعلام مع أبناء مجتمعه. واذن يمكن ان نطلق على مثل هذه الاصوات اسم الاصوات اللمسية . ولا بد ان هذه الاصوات والحركات قد تطورت وتهذبت مع تطور الانسان العربى ، عقليا ونفسيا ، واجتماعيا ومهنيا ، لتسقط الحركات الجسدية وتختصر الاصوات الكثيرة أخيرا فى أصوات حروف لمسية معينة .

ثم عندما تذوق هذا الانسان الاشياء وشمها ، ونظر اليها وسمع أصواتها ، وعندما عانى بعض الانفعالات الشعورية ، فلا بد أن يكون قد عبر عن كل ذلك بأصوات خاصة مرفقة بحركات ملائمة ، على مثال ما فعل باللموسات . لتسقط الحركات ، وتتهذب الاصوات ، فتختصر فى حروف ذوقية وشمية وبصرية وسمعية وشعورية .

الافتراض الثالث :

اذا صح أن الانسان العربى قد عبر عن احاسيسه ومشاعره بأصوات الحروف العربية الفجرية فالمفترض ان توحى الاصوات بمختلف الاحاسيس والمشاعر الانسانية . فأصوات الحروف ، قبل ان تنتمى الى القطاع اللغوي ، تنتمى أصلا الى القطاع الصوتي .

ولقد اقتضتني الاجابة على هذا الافتراض ، القيام بدراسة مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الاصوات والحواس ، وقد خلصت من هذه الدراسة الى تصنيف الحواس فى هرمين حسيين اثنين :

ا ـ فالحواس الخمس من حيث ماديتها يمكن تصنيفها فى هرم حسي سوي .

يبدا هذا الهرم بحاسة اللمس ، أشد الحواس مادية ، كقاعدة له . ثم تأتي حاسة الذوق الأقل مادية ، فى الطبقة الثانية . ومن ثم تأتي حاسة الشم، فحاسة النظر ، لتحتل حاسة السمع أقل الحواس مادية وأكثرها تجريدا ، قمة الهرم .

ب ـ أما الحواس الخمس من حيث قدرتها على استيحاء الاحاسيس (اي التاثر بها وادراكها)، فيمكن تصنيفها فى هرم حسي منكوس ، ذروته فى الاسفل ، وقاعدته فى الاعلى .

يبدا هذا الهرم بحاسة اللمس المغلقة على نفسها فى الذروة المنكوسة ، فلا توحى ملامس الاشياء باي احساس ذوقي أو شمي او بصري او سمعي او شعوري . ثم تأتي حاسة الذوق فى الطبقة الثانية . فتوحى مذاقات الاشياء ، بأحاسيس لمسية فقط ، ولا توحى بشىء من أحاسيس الحواس الاخرى او المشاعر الانسانية . ثم تأتي على التوالي حواس الشم ، فالنظر ، فالسمع . كل حاسة منها تدرك احاسيسها وتستوحى أحاسيس من دونها من الحواس ، دون أن تستطيع استيحاء أحاسيس من

نوتها . ولذلك فان حاسة السمع تستوحى مختلف الاحاسيس والمشاعر الانسانية . بمعنى ان الاصوات توحى أصلا بمختلف الاحاسيس والمشاعر الانسانية .

وهذه العلاقة بين الاصوات وبين الاحاسيس والمشاعر الانسانية قد اكتشف بعضها كثير من العلماء والادباء والشعراء والفلاسفة . منهم عالم الصوت (بلمار) الذي تبين له من كشوفه (ان ثمة تشابها بنيويا أساسيا بين أصوات اللغة التى تدركها الاذن ، وبين الالوان التى تراها العين) (4) .

ومنهم الشاعر الفرنسى رامبو الذي لحظ ان لأصوات بعض الحروف الفرنسية ايحاآت بألوان معينة ، ليوحى له صوت حرف (O) باللون الاسود .

ومنهم ابن جني الذي جاء بقاعدته الشهيرة (حذوا لمسموع الاصوات على محسوس الاحداث)، لتوضيح العلاقة الطبيعية بين الصورة الصوتية للفظة وبين صورتها المرئية فى الحدث الذي تعبر عن معناه .

ومنهم الارسوزي الذي قال بالعلاقة الثلاثية الاركان بين الصورة الصوتية للفظة العربية والصورة المرئية لها ، وصداها فى الوجدان (اي المشاعر الانسانية) .

الا ان أحدا لم يقل بأية علاقة بين الاصوات والاحاسيس الذوقية والشمية .

ولكن تبين لي أثناء هذه الدراسة ، ان الاصوات الانفعالية ، لا يمكن ان توحى بمشاعرها الانسانية بدقة ، الا اذا كان سامعها قد عانى سابقا هذه المشاعر بالذات .

وهذا ما قادنى الى القول بان الشعور الذي يعي ذاته بذاته ، هو الحاسة السادسة . فعقدت فصلاً خاصا للكشف عن دور الشعور ، سواء فى عملية ابداع أصوات الحروف عن طريق التقمص ، او فى عملية استيحاء معانى الاصوات عن طريق الاستبطان ، لأخلص أخيرا الى البرهان على ان الشعور يتمتع بخصائص الحواس ، وان تميز عنها فى بعض المواصفات . ونظرا لشفافية هذه الحاسة وتجردها المطلق عن المادة فقد صنفتها على امتداد الهرمين الحسيين فوق ذروة الاول وقاعدة الثانى .

الإفتراض الرابع :

اذا صح ان الانسان العربى قد عبر عن احاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، وان الاصوات توحى فعلا بمختلف الاحاسيس والمشاعر الانسانية ، فالمفترض ان توحى أصوات الحروف العربية بهذه الاحاسيس والمشاعر .

(فمجرد القول بان الانسان العربى الفجر قد استخدم أصوات حروفه للتعبير عن احاسيسه ومشاعره ، لا يتضمن بالضرورة هذه الصلة الايحائية بين أصوات الحروف ومعانيها . اذ يمكن ان نصرف ذلك الى أن الانسان العربى قد فرض رمزية مصطنعة بين الحروف ومعانيها. وذلك على مثال تجربة العالم بانوف الشهيرة الذي استخدم فيها قرع الجرس لتنبيه الحاسة الذوقية فى كلبه . وليس بين صدى قرع الجرس وبين حاسة ذوق كلبه الا عادة تقديم الطعام له عند القرع ، ولا ايحاء ولا استيحاء) .

---

4) المرجع السابق ص 326

وللتحقق من صحة هذا الافتراض ، أخذت أتأمل مدى اصوات الحروف العربية فى نفسي حرفا بعد حرف ، للكشف عن خصائصها ومعانيها ، على مهل الشهور والاعوام . ولقد تبين لي أن هذه الحروف موزعة بالفعل بين الحواس والمشاعر الانسانية ، لكل حاسة مجموعة من الحروف ، ولكل انفعال شعوري أساسي ، حرف خاص .

فكان لحاسة اللمس ستة حروف هى : (ت. ث. د. ذ. ك. م) .

وكان لحاسة الذوق حرفان اثنان هما (ر. ل).

وكان لحاسة البصر أحد عشر حرفا هى (الهمزة ا . ب . ج . س . ش ، ط ، ظ ، غ ، و ، ي) .

وكان لحاسة الشعور سبعة أحرف هى : (ص ض. ن. خ. ح. هـ ع.) .

أما حاسة الشم فلم أجد لها حرفا خاصا بها ، وان كان لبعض أصوات الحروف ايحاآت شمية ، الى جانب ايحاآتها الحسية الخاصة . على أن حرف الطاء البصري ، هو ألصق الحروف بحاسة الشم ، مخرج صوت وايحاء معنى .

الافتراض الخامس :

اذا صح ما انتهيت اليه من تأملاتي الخاصة، من حيث تصنيف الحواس فى هرمين حسيين، ثم من حيث توزيع الحروف بين الحواس والمشاعر الانسانية، فالمفترض ان يكون لكل ذلك سنده من واقع اللغة العربية . ولا بد للانسان العربى أن يكون استثمر الخصائص الصوتية لحروفه فى ابداع ألفاظه للتعبير عن معانيها . وبتعبير أدق ، لا بد ان يكون لصوت الحرف العربى دوره الفعال فى تكوين معنى اللفظة العربية .

وللتحقق من صحة هذه الافتراضات لجأت الى المعاجم اللغوية للكشف عن مدى التوافق بين خصائص الحروف الصوتية وبين معانى الالفاظ التى تدخل فى تركيبها .

ولقد كان من أصول البحث العلمى ، ان أستخرج معاني جميع المصادر التى تبدأ بحرف معين ، ثم معاني جميع المصادر التى تنتهي به ، ومن ثم جميع معاني المصادر التى يقع هذا الحرف فى أواسطها . ثم أقارن بين هذه المعاني وبين الخصائص الصوتية لهذا الحرف . وذلك لأرى مقدار نسبة التوافق بين خصائصه الصوتية وبين معاني جميع المصادر التى شارك فى بنيانها . واخيرا ، لنقرر فيما اذا كان الانسان العربى قد استخدم الخصائص الصوتية لهذا الحرف فى معاني الفاظه ، أم أنه لم يفعل . وهكذا حرفا بعد حرف ، لنحكم فى النهاية ، فيما اذا كان للحروف العربية معان خاصة، أم انها مجرد رموز على معان ، وان اللفظة العربية بالتالى ، مجرد مصطلح على معنى ، كما يقول اصحاب المدرسة اللغوية الحديثة .

ولما كان هذا التقصي العلمي فوق طاقتي ، فقد رأيت بادىء ذي بدء ان أكتفي باستخراج معاني الالفاظ التى تبدأ بالحرف موضوع الدراسة ، بزعم ان الحرف الاول من اللفظة العربية ، هو الذي يطبع معناها بخصائصه الصوتية . وذلك استنباطا من النزعة الفردية فى الانسان العربى المتهم بانه مولع بمكان الصدارة من كل أمر ، لا يبعد معها ان تمتد الزعامة فى الكلمة للحرف الاول . فماذا كانت النتيجة؟

لقد صدقت وجهة نظري هذه بالنسبة للحروف القوية بصورة غير متوقعة . فكانت خصائص الحروف ذوات الشخصيات المتميزة تتطابق مع معانـــى الالفاظ التى تبدأ بها ، بنسب تتراوح بين (40—66) بالمئة ، كحروف (د ، ر ، ل ، ب ، ج ، ف ، ز ، ق ، خ ، ص ، ه ، ع) . كما أن معانى الالفاظ التى بدأت بمعظم هذه الحروف قد التزمت بطبقاتها الهرمية ، لـــم تتجاوزها الى الطبقات العليا ، الا نادرًا ، وبفعـــل حرف قوي الشخصية ينتمى الى تلك الطبقات ، وتلك معجزة خارقة لا مثيل لها فى اي لغة من لغات العالم .

فمعانـــي جميع الالفاظ التى تبدأ بحرف الدال اللمسى مثلا ، لم تتجاوز طبقته اللمسية الى الطبقات العليا الا فى ثلاثة ألفاظ (الدسم) للطبقة الذوقية ، و (دندن) و « دوى » للطبقة السمعية .

أما الحروف الشاعرية الرقيقة ، كحـــروف : « م، س ن، » ، فكانت أقدر على فرض خصائصهـــا الصوتية على معانـــى الالفاظ ، عندما تقع فى نهاياتها، وليس فى أوائلها ، وتلك رهافة سمـــع فى الانســـان العربى ملفتة للانظار .

(وذلك ، على مثال ما كانت المراة فى المجتمع الرعوي أوحى بخصائصها الانثوية ، رقة وحشمة واحاطة وحنانا ، عندما تستتر فى مضربها فى مؤخرة الصفوف، أنسجاما مع ميلها الفطري الاصيل الـــي دواعي الطمأنينة والاستقرار . على العكس من الرجل الراعي فى صحرائه ، الذي كان بجهارة صوتـــه ، وخشونة منظره وصلابة قسماته ، أوحى بالقـــوة والرجولة وادمـــى البطولة ، عندما يكون فى مقدمة الصفوف).

أما الحروف الضعيفة الشخصية ، فلم تفلـــح فى فرض خصائصها الصوتية على معانى الالفاظ التى تتصدرها او تتوسطها أو تنتهى بها ، كما لم تستطـــع أن تحتفظ بطبقاتها الهرمية . فهي حروف أمعية ، لتلوين معانـــى الالفاظ التى تدخل فى تراكيبها ، كحروف : (ا ، و ، ي ، ط ، ح) . شأن هذه الحروف ، شأن الامعيات فى المجتمعات الانسانية .

وهكذا بالتزام معاني الالفاظ التى تبدأ بالحروف القوية الشخصية طبقاتها الحسية ، لا تتجاوزها الى الطبقات العليا ، الا نادرا ، وان شملت الطبقـــات الحسية الادنـــى ، فان ذلك يـــؤكـــد صحة تصنيف الحواس فى الهرم الحسي المنكوس ، وان الاصوات بخاصة توحى بأحاسيس جميع الحواس .

الافتراض السادس :

(كل أثر فنـــي أصيل يحمل بالتأكيد نفحة من روح مبدعه ، لينطبع بطابعه الشخصي المميز ، عمارة كان الأثر ، أو نحتا ، او رسما ، أو شعرا ، أو موسيقـــى او أدبا — مما يستطيع معه ذواقة الفنون الأصلاء ، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الانساب الى اصحابها) .

فاذا صح ان الانسان العربى قد أبدع حروفـــه عفو فطرته السوية ، ليعبر بها عـــن أحاســـيـــه ومشاعره فى ألفاظ طوال آلاف الاعوام ، فالمفترض ان يحمل الحرف العربـــى طابع الشخصية العربية.

وللتحقق من صحة هذا الافتراض عقدت فصلا خاصا فى القسم الثانـــى من هذه الدراسة بعنوان : « بين فردية الانسان العربى وفردية الحرف العربى »

وفى الحقيقة ، لما كان الانسان العربى قد بدأ حياة الرعي والتشرد فى الجزيرة العربية منذ الألف العاشر قبل الميلاد ، ولا جدران عالية تعصمه مـــن

عاديات الوحوش والناس ، ولا ستوف مرفوعة تقيه من تقلبات الطقس والطبيعة ، فقد استجاب لكل هذه التحديات بحصون منيعة من القوة والشجاعة ، وباردية واقية ، من التقشف والصبر والجلد .

ولما كان المجتمع العربي الرعوي لم ينعم بسلطة مركزية مسيطرة تحميه من أعدائه والطامعين بقطعانه فقد لجأ الى روابط قبلية تنجده عند الحاجة وتثار له عند الاقتضاء .

ولما لم تتوفر له مؤسسات اجتماعية تكفله في عوزه ومرضه وضعفه وطوارئه ، فقد أحدث مؤسسات انسانية من تقاليد الكرم والضيافة ومفاهيم الشهامة والمروءة والنجدة والشرف ، يلجأ اليها عند الضرورة.

وهكذا قامت فردية الانسان العربي أول ما قامت ، على أصالة الصلة بين طاقاته الروحية وطاقاته الجسدية ، بعضها يأخذ بعناق بعض . فكلما صبت نفسه في مواقفه الى قيم انسانية عليا ، استجاب جسده لتحديات الحياة قوة وتجلدا . والعكس بالعكس صحيح . لتقوم فردية الانسان العربي أصلا ، على الرابطة الاصلية بين القيم الاخلاقية والقيم الاجتماعية .

وبالمقابل ، فان الحروف العربية قد نشأت منذ فجرها الاول في بيئة بكر ، لا لغة فيها ، ولا فنّ ولا أدب ، ولا دين ، ولا فلسفة ، فألقى الانسان العربي على عاتقها كل هذه الاعباء الثقافية للتعبير عن احاسيسه ومشاعره وافكاره وحاجاته . وقد استجابت الحروف العربية عبر العصور لهذا التحدي الثقافي الكبير . لتحمل الحروف العربية في طيات أصواتها تراث الانسان العربي الثقافي ، ان لم يكن تراث الانسانية .

وهكذا قامت فردية الحرف العربي على أصالة الصلة بين خصائصه الصوتية المميزة وبين معانيه ، على مثال ما قامت الفردية العربية على اصالة الصلة بين طاقاته الجسدية وطاقاته الروحية .

وانسجاما مع نهج الانسان العربي الفني الاخلاقي في مراتبه الاجتماعية وتقاليده، ومؤسساته، قد خص الحروف العربية التي في أصواتها تناسق وانسجام وفعالية بمختلف معاني الشهامة والمروءة والسموّ ومشاعر النخوة والحنين والخشوع وما اليها من القيم الانسانية . اما الحروف التي في أصواتها نجاجة واضطراب ورخاوة ونشاز ، فقد خصها بمعاني الفظاظة والقباحة والخسة والسفاذة والعتامة والاضطرابات النفسية والتشوهات الجسدية ، وما اليها من النقائص الانسانية ، في روابط صحيحة صريحة متبادلة بين القيم الجمالية والقيم الاخلاقية ، ظاهرة لغوية متفردة في دنيا الحروف لا مثيل لها في لغات العالم ايضا .

ليصدق بذلك الحدس الذي تأسست عليه أصلا هذه الدراسة ومآله :

« لا فن بلا أخلاق ، ولا أخلاق بلا فن »

الافتراض السابع :

اذا صح أن الانسان العربي قد صبّ في الحرف العربي عصارة روحه ، وخلاصة مقوماته الشخصية ، على وجه ما سبق ، فالمفترض أن يكون ثمة علاقة نفسية بين الحرف العربي والانسان العربي .

وللتحقق من صحة هذا الافتراض ، عقدت فصلا خاصا في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان :

« الجوانب النفسية في الحرف العربي » .

وفى الحقيقة ، لما كان لصوت كل حرف عربى خصائصه الصوتية الذاتية التى توحي بمعانيه ، فانه لا بد للانسان العربى بصورة مبدئية ان تتأثر نفسه بخصائص هذه الحروف عند التلفظ بها . فاذا كان فى صوت الحرف اهتزاز واضطراب كالهاء مثلا ، انعكس هذا الاهتزاز والاضطراب على نفس قائله وسامعه على حد سواء . ويكون ذلك أوضح ظهوراً ، اذا رافق مثل هذا الحرف حروف مناسبة ، وركبوا فى صيغة ملائمة ، ولا بد لقائل هذا الحرف ان تعانى جملته العصبية ، ذات الاهتزاز ، والاضطراب ، استعدادا للتلفظ به ، على مثال ما أصاب مبدعه الاول ، ولو بانفعال مخفف ، آه ، أوّاه .

وهكذا الامر مع بقية الحروف ، واذن :

لما كانت خصائص الحروف العربية هى وليدة مخارجها الصوتية على مدرج النطق ، وكان لكل انسان مخرج صوت معين على مدرج النطق ايضا، فان الانسان الذي ينطبق مخرجه الصوتى على مخرج أي حرف من الحروف العربية ، لا بد ان تتأثر شخصيته بخصائص ذلك الحرف بالذات .

فالفرد الذي يكون مخرج صوته العفوي المعتاد هائيا مثلا ، لا بد أن تكون شخصيته منطبعة مسبقا بخصائص صوت هذا الحرف ، اضطرابا نفسيا وياسا وحزنا دفينا ، وان يوحى صوته بالتالى بهذه المشاعر بالذات ، وهكذا الامر مع من كان مخرج صوته عينيا ، او حائيا ، او جيميا ، او نونيا .. وما الى ذلك من المخارج الصوتية للحروف والنماذج الانسانية للافراد. وهذه القاعدة الصوتية اللغوية ، هى أصدق ما تكون بين المغنيين والمرتلين .

ولقد عقدت فى القسم الثانى من هذه الدراسة فصلا خاصا بعنوان « الحروف العربية والاصوات الغنائية » ، كشفت فيه عن مخارج اصوات بعض المغنين والمرتلين ، منهم ذو المخرج الصوتى العيني ، (وديع الصافى ، عبد الوهاب فى شبابه ، فيروز ، أم كلثوم) ، والهائي (فريد الاطرش ، خضيري أبو عزيز) ، والحائي (نجاح سلام) ، واليائي (فايزة أحمد) ، والنونى (عبد الباسط عبد الصمد ، أحمد السكري) .

ولكن هل تقتصر هذه القاعدة الصوتية اللغوية على الانسان العربى فحسب ، ام انها تتجاوزه الى الناس كافة ؟

بحكم أصالة الصلة بين الخصائص الصوتية للحروف العربية المقتبسة عن الطبيعة وبين معانيها، فان الحرف العربى، فى هذا المضمار الصوتى اللغوي، يتجاوز نطاقه القومى الى الانسانى . ولقد ضربت على ذلك بعض الامثلة عن مختلف الشعوب .

ومن ينكر علينا هذه العلاقة بين شخصية الانسان وبين مخرجه الصوتى على مستوى الافراد والشعوب ، فانى احيله الى المنحنيات الصوتية الثلاثة التى اكتشفها العالم (ادوارد سيفرز) وتلميذه الموسيقى « غوستاف بكينج ».

فكل فرد ، على رايهما ، يحمل كلامه خصائص لا تتعطل ، ولا يمكن التخلى عنها . وهذه الخصائص ترجع فى أصلها الى القسم الادنى من الجهاز الصوتى الواقع بين منطقة البطن ، وبين الصدر والتجويف البطنى . وبتحليلهما للأصوات البشرية، تبين لهما ان ثمة ثلاثة نماذج أساسية من المنحنيات، ولكل منها تفرعاته . وكل متكلم ينتمى أصلا لواحد من

هذه المنحنيات التى تتحكم بحركاته الجسدية واليدوية والوجهية ، وكذلك بالكتابة والرسم والرقص والرياضة والجنس ، وكافة النشاطات وأنماط السلوك . وان القبائل ، وحتى الشعوب برمتها ، لا تستخدم، بشكل شبه حصري، الا واحدا من منحنيات (بكينج) (5) .

أسوق هذا الخبر (العلم نفسى ـ الصوتى) ، للتدليل على ان ثمة علاقة أصيلة بين شخصية الانسان ، وبين طابعه الصوتى ، ولا يهم كثيرا بعد ذلك ، ان يكون ، ، او لا يكون ثمة علاقة ما بين المخارج الصوتية للافراد والشعوب ، وبين منحنيات (بكينج) وان كنت لا أستبعدها .

وهكذا قد خصصت القسم الثانى من هذه الدراسة ، وعنوانه (الحروف العربية والشخصية العربية) ، لاستثمار خصائص الحروف العربية فى الكشف عن الجوانب النفسية والاجتماعية والفنية والاخلاقية فى الانسان العربى ، وعن مدى تجاوب الحرف العربى مع مقومات الشخصية العربية ، على حد سواء .

وهكذا بدات دراستي عن الحروف العربية ، من حيث انتهى أصحاب المدرسة اللغوية القديمة ، وانتهيت بها عند أبواب المدارس اللغوية الحديثة ، لم أتجاوز عتباتها الا قليلا ، ولكن صحابة مقولة فطرية اللغة العربية ، فى زيها العصري المبتكر .

وانى لأرجو ان تثير هذه الدراسة اهتمام اللغويين من اصحاب المدرستين ، ليؤاخوا فى ذلك بين التراث القديم والاسلوب العلمي المعاصر ، للكشف عن خصائص الحرف العربى ، وعن مقومات الانسان العربى .

فلقد عنانى من هذه الدراسة ، أكثر ما عنانى جانباها الثقافى والقومى ، فتوخيت منها أول ما توخيت أمرين اثنين :

أ ـ ان القى بعبء تعريف مفاهيمنا، وتحديد مضمونها الثقافى ، على عاتق قبضة من الحروف ، لا يصعب استيعاب خصائصها . فاذا ما توصل الانسان العربى الى الكشف عن جميع خصائص الحروف العربية ومعانيها ، فى محاولات لغوية مماثلة ، استطاع ان يحرر لغته وفلسفته وادبه ومفاهيمه من مختلف الشوائب . وبتحرير التراث العربى الاصيل من دخيله ومدسوسه ، يستطيع الانسان العربى ان يستانف مسيرته الثقافية بروح عصرية جديدة ، دون ان يتنكر لمضمونه الذاتى ومقوماته القومية .

ب ـ ان استنبط من الحروف العربية نهج الانسان العربى فى الحياة ، بقواعده التى أسس عليها ذاته ، وأقام تقاليده ، وبنى مؤسساته . فاربط بين هذه القواعد وبين خصائص الحروف العربية ومعانيها ، كحقائق راهنة لا مجال لانكارها ، فيتمسك باللب الاصيل ، ويتخلى عن القشر المرحلى العارض.

وهكذا فالحروف العربية ، انما هى جذور الانسان العربى فى الطبيعة والتاريخ معا . انها الجاذبية اللامرئية التى تربطه بصميم امته وتجمع بينه وبين اخوانه على سطوح مجتمعاتها .

ولهذا السبب بالذات ، قد استهدفت الحروف العربية منذ مطلع هذا القرن ، ولا تزال تستهدف

---

5) المرجع السابق ص 314 ـ 316 .

لحملات مشبوهة من تهم التصور والعتم وافتراآت الرجعية والتخلف ، ليصار الى تبديلها بحروف لاتينية تارة ، وللاستعاضة عن الفصحى باللهجات العامية المحلية تارات أخر .

وعندما نتخلى عن حروفنا ، أو فصحانا ، لابد ان نتقطع بذلك جذورنا الثقافية والقومية معا ، وان نفقد بالتالى ارتباطنا ببيئتنا وأمتنا ، لنغترب فى عقر دارنا غربة قاطعة ، لا لقاء معها ابد الدهر .

وعندئذ ، تزداد فرص بقاء ونماء جميع الكيانات السرطانية فى جسم الوطن العربى المعلاق، بما يمكن اثارته وزرعه فى روابطه وبين أجزائه من مختلف عوامل التفسخ ، ومن شتى ضروب التناقض والنزاع .